

تطور الرسم عند الطفل و دلالاته السيكولوجية

أ. سليمان حسين، جامعة وهران

أ. تواتي إبراهيم عيسى، جامعة الوادي

ملخص الدراسة:

إن رسوم الأطفال نماذج حية لحالتهم النفسية و العقلية و الجسمية، كما أن رموزهم تخرج مركزة في أشكال تعتبر مفاتيح تظهر تاريخ الطفل و كثير من المعاني الدفينة داخله. بهذا يكون الرسم أحد الوسائل للتعبير عن الحياة الوجدانية التي يتعذر التعبير عنها بوسائل أخرى، فالرسم هو لغة تشكيلية مفرداتها الخطوط و الألوان تتيح للطفل التعبير عن حاجاته و صراعاته و انفعالاته و علاقته بالبيئة و الآخرين بطريقة رمزية يعجز عن التعبير عنها لفظيا مما يحقق له قدرا من التوازن الانفعالي و من ثم يمكن تشخيص حالة الطفل، و معرفة الصعوبات التي يعاني منها عن طريق قراءة رموزه و أشكاله و معرفة مدلولاتها. الأمر الذي يمهّد الطريق لعلاج الطفل عقب صياغة مشاعره و نزعاته في شكل مقبول اجتماعيا بدلا من كبت المشاعر و التعبير عنها بصورة مرضية غير مرغوب فيها.

Abstract:

The children's drawings are vivid models for their psychological, mental and physical state. As their symbols came out in concentrated forms, they are considered keys to show the child's history and a lot of behind the underlying meanings. Thus, drawings are one of the means to express their emotional life that cannot be expressed by other means. Children's drawing is a fine language, its vocabulary are lines and colours which enables the child to express his needs, struggles, emotions and its relationship to the environment and others in a symbolic way that he is unable to express them verbally. This would bring him a deal of emotional balance and then the

child's case can be diagnosed, and finding out the difficulties that he suffers from, through explaining his symbols and forms in order to know their meanings. And this paves the way for the treatment of the child after the formulation of his feelings and tendencies in a socially acceptable form rather than suppressing his feelings and express them in a undesirable and pathological manner.

مقدمة:

يعد الرسم أحد أهم أدوات التواصل مع الطفل، وهو يسبق النطق والكلام في بعض الأحيان، ومع تطور العلوم النفسية وتزايد الاهتمام بفروعها المختلفة، ظهرت دراسات نفسية جديدة تسلط الضوء على رسوم الأطفال وتحاول قراءة وفك رموز الرسائل التي يحاول الطفل إيصالها إلينا برسومه، وهكذا لم تعد رسوم الأطفال مجرد خربشات طفولية لا فائدة منها سوى تسلية الطفل وإشغاله أو تعزيز الحس الجمالي أو تنمية موهبة الرسم لديه، بل أصبحت وسيلة للاقترب من عالم الطفولة في محاولة علمية جادة لفهم هذا العالم الذي بقي عصيا على البالغين إلى وقت قريب.

1- الرسم:

الرسم وسيلة تعبيرية بواسطة الخطوط حيث يلعب الخط دوره الأساسي الكامل في التصميم، والرسم يعتبر الوسيلة المباشرة للتعبير عن جمال الشكل أو الهيئة في أبسط حالة وباختصار شديد حيث يمكن للخط أن يعبر عن القريب والبعيد، والقوي والضعيف وغير ذلك، إن الرسم فطري في الإنسان، فإذا صادف الطفل أداة للتخطيط في عمره المبكر سرعان ما خطط في أي مكان، فهو وسيلة تنفيسية تعبيرية (فراج و حسن، 2004، ص180).

و يرى عبد المطلب أمين القريطي أن الرسوم و الرموز و الأشكال البصرية قد تتساوى مع اللغة اللفظية من حيث الدلالة على المعنى، و من حيث قابليتها لنقل الأفكار و توصيلها للآخرين (القريطي، 1995، ص 28).

و تضيف الهندي بأن رسوم الأطفال هي تلك التخطيطات الحرة التي يستخدمها الأطفال كلغة يعبرون فيها على أي سطح كان منذ بداية عهدهم بمسك القلم أو ما شابه ذلك، إلى أن يصلوا إلى مرحلة البلوغ. فرسوم الأطفال لغة تعبيرية وبواسطتها ينقل الأطفال كثيرا من المعاني التي تختلج في نفوسهم وخبراتهم إلى المحيطين بهم،

وهي تعني القدرة على الاتصال بالآخرين (الهندي، 2009، ص15).

إذن فنشاط الرسم هو من أهم مجالات التربية الفنية التي تقوم على أسس جمالية وروحية و نفسية تسمو بالفرد و تساهم بشكل فعال في نموه من جميع النواحي. و يعتبر وسيلة يعبر من خلالها الفرد عن مكنوناته و رغباته التي يعجز عن التعبير عنها بلغة لفظية صريحة.

2- أهمية الرسم في العلاج النفسي:

2-1- الرسم كوسيلة تشخيصية:

حظيت الرسوم بأهمية بالغة منذ فترة مبكرة بوصفها مادة سيكولوجية تتسم بالثراء و يمكن الخروج منها بالعديد من الدلالات، ليس في مجال الذكاء والنضج العقلي وحده ولكن في مجال الشخصية واضطراباتا أيضا.

وقد استخدمت الجوانب التعبيرية والانفعالية في رسوم الأطفال للكشف عن بعض خصائص الشخصية، مستمدة أهميتها، في كثير من الأحيان، من معطيات التحليل النفسي على وجه الخصوص، من ذلك أن ماكوفر (Mackover 1949) استخدمت رسوم الراشدين والمراهقين لتقديم تفسير شامل لخصائص الشخصية المرضية.

أما أهمية دراسة رسوم الأطفال بالنسبة لعالم التحليل النفسي فتؤكد «الهندي» على قيمتها التشخيصية، فتقول أن الرسوم التي يقوم بها الأطفال وبخاصة قبل معرفتهم للقراءة والكتابة وقبل تعلمهم الكلام، أو أي أسلوب آخر من أساليب التعبير تقدم للمحال النفسي سجلا لتاريخ حياة الطفل يمكنه من دراسة تشخيص المرض النفسي الذي ينتاب الطفل، وبذلك يمكنه معرفة أسبابه فيقترح العلاج المناسب له (الهندي، 2009، ص20).

و قد رأت «ماكوفر» أن الفرد خلال عملية الرسم يكون خاضعا لتأثير العمليات الشعورية و اللاشعورية المتصلة بصورة ذاته. و من ثم فالشكل الإنساني المرسوم يجب أن يفهم على أنه تعبير عن الأمزجة و التوترات، و على أنه وسيلة لإسقاط مشاكل صاحب الرسم، و أسلوبه في تنظيم خبراته كما تنعكس من خلال نسق الجسم، و لتجسيد صراعاته النفسية حول أعضاء هذا الجسم و صفاته كما يراها. كما رأت أنه عن طريق الرسم يمكن للفرد أن يعبر عن مشاعر قوته أو ضعفه و عجزه، كما يمكنه أن يؤكد أجزاء معينة أو يحذف أجزاء أخرى، تبعا لانفعاله بها و مشاعره نحوها (القريطي، 1995، ص 191-192).

التشخيص من خلال الفن عملية ليست سهلة، و لكنها تتضمن عدة عوامل هامة و علاقات مختلفة منها:

أ- علاقات المريض مع المعالج بالفن و تتضمن هذه العلاقة كل نشاط أو سلوك يقوم به المريض اتجاه المعالج بالفن.

ب- علاقة المريض بنوع النشاط الفني حيث يقوم باختيار نوع نشاطه بحرية و كذلك موضوع التعبير و خاماته و نوع الرموز الفنية. و تتضمن هذه العلاقة كل نشاط أو سلوك يقوم به المريض تجاه النشاط الذي يقوم به.

ج- علاقة المريض بالجماعة و تتضمن كل سلوك أو نشاط موجه من المريض للجماعة أو من الجماعة للمريض، و من خلال هذه العلاقات يترجم سلوك المريض و تشخص حالته النفسية و تصنف ضمن إحدى الفئات الإكلينيكية.

و هناك تشخيصات أخرى تتم بواسطة الطبيب النفسي عن طريق المقابلات والفحص الطبي، و بواسطة الأخصائي النفسي الإكلينيكي و ذلك عن طريق تطبيق الاختبارات النفسية، و كذلك بواسطة الأخصائي الاجتماعي النفسي (فراج وآخرون، 2004، ص 56-57).

2-2- الرسم كوسيلة علاجية:

لقد تناولت "نومبيرج" العلاج بالفن على أنه يعتمد في طرقه و أساليبه على السماح للمواد اللاشعورية بالتعبير التلقائي من خلال الوسائط و المواد الفنية. وتشجيع عملية التداعي الحرة بغية استخلاص البيانات و التحليلات و التفسيرات من خلال التصميمات و الرموز الناتجة، و التي تمثل شكلا من أشكال التواصل أو الكلام الرمزي بين العميل و المعالج.

و قد دلت "فلورنس كان" Can (1951) على ما للتعبير الفني من قيم تعويضية و تنفيسية عن الطاقات و المواد الغريزية المكبوتة، و اهتمت بتشجيع الحركة وإسقاط الصور العقلية و الذكريات، و التركيز على تناول الخبرات الداخلية العميقة، كما يتم ترجمتها من خلال الرسوم.

وتعد « أديث كرامر » Kramer (1958, 1973, 1979) من أولئك الرواد الذين اهتموا بالقيم التشخيصية و العلاجية للفن بالنسبة للمشكلات السلوكية و الاضطرابات الانفعالية لدى الأطفال خاصة. كما تنظر إلى الفن باعتباره وسيلة لاحتواء الصراع الداخلي بين الدوافع الفطرية و المتطلبات الاجتماعية. و تذهب « كرامر » إلى أن السلوك الفطري يستبدل عن طريق الإغلاء بسلوك اجتماعي له دلالاته على نمو الأنا

و تطورها. و قد ساعدت فنون الإنسان على تحقيق ذلك على مر العصور(القريطي، 1995، ص 242-243).

و تشير «الصايغ» بأن الرسم يعد أحد وسائل التعبير عن الحياة الوجدانية التي يتعذر التعبير عنها بوسائل أخرى، فالرسم يساعد على تحقيق الاتزان النفسي لتمييزه بعاملين : العامل الأول يكمن في كونه يساعد على التخلص من بعض المكونات والحاجات المرفوضة مثله مثل كل الوسائل التنفيسية الأخرى، أما العامل الثاني فيرجع إلى اعتباره وسيلة متسامية تعمل على إبدال الدوافع والحاجات المرفوضة من هدفها الأصلي وخروجها في صورة رمزية متوازنة مقبولة من الذات والمجتمع في آن واحد (الصايغ، 2001، ص80).

ويختصر "القريطي" أسس استخدام التعبير الفني كوسيلة علاجية في النقاط التالية:

1- التعبير الفني وسيلة لإسقاط مخاوف الفرد و مشاعره و إدراكاته و اتجاهاته. كما أنه وسيلة للتنفيس عن الضغوط و التوترات و المواد اللاشعورية مما قد يعجز الفرد عن الإفضاء بها بالطرق المعتادة كاللغة اللفظية.

2- أن الفرد إذ ينفس عن انفعالاته و نزعاته، و يجسد عواطفه و صراعاته، ومشكلاته عن طريق الترميز البصري من خلال الفن، فإن ذلك من شأنه أن يساعده على اكتشاف ذاته و الوعي بها من ناحية، و على الاعتراف بهذه المواد التي طفت من أعماق اللاشعور إلى دائرة التفكير الشعوري ، و تقبلها بدلا من إنكارها و كبتها ثم التعبير عنها بطرق مرضية غير مقبولة. كما أن إفراغ هذه المواد و الصراعات و النزعات العدوانية في قوالب فنية يساعد على التسامي بها، و التخفيف من وطأتها على النفس، مما يحقق التوازن الداخلي للفرد.

3- كما يلمح لويس مليكة (1986) إلى أن إسقاط الصور الداخلية و تجسيده في رسوم خارجية من شأنه أن يؤدي أيضا إلى بلورة التخیلات و الأحلام، و تثبيتها في سجل مصور ثابت يعين المريض عل التحرر من قبضة الصراع.

4- الفن وسيلة تعويضية عما يشعر به الفرد من عجز و قصور نفسي أو جسمي أو اجتماعي، فمن التعبير الفني يمكن أن يشبع الفرد بدرجة ما- حاجاته و رغباته المحببة التي عجز عن تحقيقها في الواقع.

5- التعبير الفني وسيلة ميسورة للاتصال، لا سيما بالنسبة لأولئك الذين يجدون صعوبة ما أو يعجزون تماما عن الاتصال اللفظي. و كما يذكر «ب. تلي»

P.Tilly فإنه مع تطوير قوى الاتصال و التعبير عن الأفكار، يتولد الإحساس بتحقيق الذات. و هو شيء حيوي للأطفال غير العاديين مما يحتاجون إلى العون لبلورة صورة واضحة عن أنفسهم.

6- يكسب التعبير الفني الفرد شعورا متزايدا بالنجاح و المقدرة على الانجاز، وهو ما يمثل أهمية بالغة لمن لم يتمكنوا من اكتساب مشاعر الثقة بأنفسهم، واختلت صورهم عن ذواتهم من خلال تجاربهم السابقة المقرونة بالفشل و الإحباط (القريطي، 1995، ص 243-244).

3- مراحل تطور رسوم الأطفال و خصائصها:

هناك عدة تصنيفات لمراحل تطور رسوم الأطفال، وهي في جوهرها لا تختلف كثيرا عن بعضها ونكتفي هنا بذكر أشهرها وهو تصنيف « فيكتور ليونفيلد »:

3-1- مرحلة ما قبل التخطيط :

وتشير « الهندي » إلى أن هذه المرحلة تبدأ من الولادة إلى سنتين تقريبا، وتعد المرحلة ما قبل التخطيط مرحلة إعداد وتحضير للمراحل اللاحقة، فمن الملاحظ أن الطفل في هذا السن ليس لديه سوى الرغبة في التعبير عن نفسه، وعما يحيط به برموز خاصة غير شائعة أو موجودة بين الأطفال (الهندي، 2008، ص35). كما أن ضعف التحكم الجسدي وصعوبة التأزر العقلي والعقلي يعزز هذه المرحلة من خلال حركات عشوائية ناتجة عن ملامسة أداة الرسم لأجسام وأسطح مختلفة (عايش، 2008، ص36).

3-2- مرحلة التخطيط :

وتبدأ من سنتين إلى أربع سنوات تقريبا وتقسم إلى الأقسام التالية:

أ- التخطيط غير المنظم :

وتؤكد «حنان عبد الحميد» أن الطفل يبدأ عند سن الثانية تقريبا بعمل تخطيطات غير منظمة، أي تخطيطات في اتجاهات مختلفة، ويقوم بذلك عن طريق الصدفة أو رغبة منه في تقليد الكبار. وهذه التخطيطات في الغالب لا تنم عن شيء سوى عن بعض الإحساسات العضلية أو الجسمانية (العناني، 2002، ص73).

ب- التخطيط المنظم :

وتقول «الهندي» أنه بعد فترة من الزمن نلاحظ أن هذا التخطيط غير المنظم

يبدأ في التطور حتى يأخذ مظهرها نظاميا خاصا، إما تخطيطا أفقيا، و إما رأسيا، أو مائلا. ويعلل العلماء هذا التطور بأنه يرجع إلى إدراك الطفل للعلاقة بين حركات يديه وبين أثرها على الورق أو الجدران. إذ أن هذا التطور يرجع في أساسه إلى نمو الطفل وقدرته على إدراك البنية الخارجية كشيء منفصل عنه. ولكن على الرغم من هذا فإن التخطيطات التي يقوم بها لا تعبر إلا عن بعض الإحساسات العضلية أو الجسمانية (الهندي، 2009، ص 56).

ج - التخطيط الدائري :

في حوالي سن الثالثة يتطور التخطيط المنظم إلى تخطيط دائري، أي خطوط شبه دائرية. وسبب هذا التطور يرجع إلى قدرة الطفل على التحكم في عضلاته والسيطرة على حركاته المختلفة. ولكن على الرغم من هذا فهذه التخطيطات أيضا لا تعبر إلا عن بعض الإحساسات العضلية أو الجسمانية .

د- الرموز المسماة :

في سن الرابعة تقريبا يبدأ الطفل في التحول من الإحساسات العضلية والجسمية إلى الخيال الذي يعتمد على التفكير، ويظهر هذا في شكل رموز متنوعة يقوم الطفل بها ثم يطلق عليها أسماء كأن يرسم خطا ويقول : هذا ماما أو بابا . أو يذكر التسمية أولا، فيقول مثلا : إنني سأرسم بابا، ثم يشرع بعد ذلك في رسم الرموز أو الخطوط. و من الملاحظ أن الطفل هنا قد يستخدم اللون من أجل التفرقة بين معاني الرموز مثلا يرسم أباه باللون الأزرق ويرسم أمه باللون الأحمر (العناني، 2002، ص74-75).

3-3- مرحلة تحضير المدرك الشكلي :

تبدأ من سن الرابعة إلى سن السابعة، وتتصف بما يلي : يكون التخطيط منتظما ويغلب على رسوم الأطفال في هذه المرحلة الناحية شبه الهندسية، والتسمية والحذف و هو أن يرى الطفل مختلف الأشياء من منظور انطباعها لديه فهو يبالغ في أي عنصر أو جزء منه حسب أهميته، بينما بقية العناصر قد يحذفها أو يرسمها بحجم صغير والوضع المثالي و هو أن الطفل دائما يختار وضعاً مثاليا للأشياء عندما يرسمها (يحي و عبيد، 2007، ص284).

3-4- مرحلة المدرك الشكلي :

تبدأ من سبع إلى تسع سنوات تقريبا، عندما يبلغ الطفل هذه المرحلة من حياته تكون شخصيته قد تحددت معالمها وذلك بفضل نضجه العقلي والاجتماعي و يلاحظ أثر ذلك في تعبيره الفني، و تتسم رسوم هذه المرحلة بالحرية والتلقائية وتحمل بين ثناياها سمات أصحابها المميزة لكل منهم، هذا فضلا عن بعض الاتجاهات الأخرى الشائعة بين الأطفال ممن هم في هذه السن، وتتصف المرحلة بما يلي:

أ- التكرار الآلي:

يعني تكرار أشكال معينة دائما.

ب- التسطيح:

و هو أن يرسم الطفل رسوما شبه انفرادية لا تحجب عرض عناصرها البعض الآخر، فمثلا عندما يرسم منزلا يوضح جوانبه الأربعة.

ج- الشفافية:

لا يعرف الطفل في هذه المرحلة الحقائق المرئية قدر ما يعترف بالحقائق الذهنية أو المعرفية عند التعبير. مثلا إذا رسم الفواكه فإنه يرسم البذور ظاهرة فيها.

د- المبالغة:

يلجأ الطفل إلى بعض التحريفات كالمبالغة في بعض أجزاء أشخاصه.

هـ- الجمع بين المسطحات المختلفة في حيز واحد:

فمثلا عندما يريد أن يرسم وجهها فنجد يرسم الوجه من الجانب و الأمام في نفس الوقت.

و- الجمع بين الأمكنة و الأزمنة في حيز واحد:

يقوم بالتعبير القصصي عن موضوع الرسم، أي يرسم الموضوع تسلسليا، مثلا إذا أراد أن يرسم طفلة تذهب إلى المدرسة. فيقوم برسم الطفلة في حلة النوم، و بعد ذلك يرسم نفس الطفلة في مكان ثاني في نفس الورقة تقوم بغسل أسنانها و هكذا إلى دخول الطفلة إلى المدرسة (الهندي، 2008، ص35-36).

ز- التخطيط على الأرض:

يرسم الطفل خطاً أفقياً عند نهاية كل عنصر لتوضيح الأرض التي يركز عليها. تختلف رسوم الأطفال في كل مرة عن سابقتها، فإذا قام برسم شجرة، فإنه سيقوم برسمها في كل مرة بعدها بشكل مختلف عن السابق. و يلاحظ بروز الاتجاه الذاتي نحو العلاقات المكانية وتتمثل في ترتيب الأشياء (يحي وآخرون، 2007، ص284).

3-5 مرحلة محاولة التعبير الواقعي:

وتبدأ من تسع إلى إحدى عشر سنة تقريباً، وأهم محاور هذه المرحلة:

أ- التحول من الاتجاه الذاتي إلى الاتجاه الموضوعي :

تعد هذه المرحلة فترة انتقال من الاتجاه الذاتي الذي يعتمد على الحقائق الذهنية والمعرفية إلى الاتجاه الموضوعي الذي يعتمد على الحقائق المرئية أو البصرية، وسبب هذا التحول هو النمو الذي يشمل جميع نواحي الطفل الأمر الذي يجعله يشعر بفرديته وفردية الآخرين، أي أن الطفل بدأ يدرك أن لكل شيء ولكل فرد سمات ترتبط به، أي أنه بدأ يدرك كل ما حوله إدراكاً موضوعياً.

ب- التمسك بالعلاقات والمظاهر المميزة للأشياء :

ففي هذه المرحلة يبدأ الطفل بالاعتماد في تعبيره على الحقائق المرئية، أو يتحول من التكرار في الرسوم إلى التمسك بالعلاقات والمظاهر المميزة للأشياء، فمثلاً عندما يعبر عن إنسان نجده يبرز العلاقات المميزة لهذا الإنسان من نشاط وحيوية إذا كان شاباً، أو من شعر أبيض أو عصا إذا كان كهلاً.

ج - اختفاء بعض الاتجاهات السابقة :

في هذه المرحلة تختفي اتجاهات المبالغة والحذف والتسطيح وخط الأرض و الشفافية ليحل محلها ما توحى به الرؤية البصرية من مراعاة للنسب بين الأشياء أو إدراك القريب والبعيد أو استخدام اللون استخداماً موضوعياً (العناني، 2002، ص80).

3-6 مرحلة التعبير الواقعي :

تبدأ من سن الحادية عشرة إلى الثالثة عشرة ومن سماتها وعي كامل نحو إدراك العلاقة البصرية بين القريب والبعيد من ناحية الحجم، و استخدام خط الأرض للتعبير عن الإحساس بالقريب والبعيد بالنسبة للاتجاه الذاتي، و كذلك الاهتمام بالتفاصيل والمظاهر المميزة للأشخاص. بالإضافة إلى اهتمام الاتجاه البصري بالتغيرات التي

تحدث عند تحرك الأشخاص وأيضا اهتمام الاتجاه الذاتي بالإحساسات الخاصة والانفعالات الذاتية للتعبير عن الأشخاص .

3-7- مرحلة المراهقة :

تبدأ من سن الثالثة عشرة إلى سن السابعة عشرة أو الثامنة عشرة ومن سماتها استخدام الظل والنور وفقا للحقيقة البصرية، وكذلك اهتمام الاتجاه الذاتي باستعمال الرسوم وفقا للانفعالات الخاصة وذلك للتعبير عن الأشخاص، ووعي منطقي بالنسبة للعالم الخارجي، مع فروق ملموسة بين الاتجاه البصري والاتجاه الذاتي (عايش، 2008، ص38).

4- العوامل المؤثرة في رسوم الأطفال :

هناك عوامل عدة تؤثر في رسوم الأطفال ونوجزها في الآتي:

4-1- الجنس:

الحقيقة أن الفروق بين الجنسين في الرسم تظهر في فترة مبكرة ومنذ حوالي السادسة وتصبح أكثر تميزا مع مرور السنين (العناني، 2002، ص82). وتؤكد «الهندي» أن كل جنس يفضل التعبير عن الموضوعات التي اصطلاح اجتماعيا على مناسبتها له، فالبنيات يتجهن إلى رسم الموضوعات المرتبطة بطبيعة الأنثى أما البنين فيتجهون إلى رسم موضوعات الحرب والجري والرياضة البدنية وكذلك رسم الأعمال التي اختص بها الرجال. هذا بالإضافة إلى تميز رسوم البنين العنف وتميز رسوم الإناث بالرقعة (الهندي، 2009، ص92).

4-2 - الذكاء:

يرتبط رسم الطفل بقدراته العقلية ومستوى ذكائه، وفي هذا الإطار يؤكد «عطية» أن استخدام اختبار الرسوم، كأسلوب لقياس الذكاء، بات من التقاليد الراسخة في مجال علم النفس. ولعل أشهر طريقة هي طريقة العالمة «جودانف» Goodenough المعروفة بطريقة رسم الرجل، ويطلب فيها من الأطفال أن يقوموا برسم حر لصورة الرجل كما يتذكرونه أو كما يتصورونه، دون أي مساعدة من الخارج أو اقتداء بنماذج معروضة.

فالمبدأ الأساسي لدى «جودانف» هو أن الخطوط والأشكال المرسومة هي رموز تستطيع أن تعبر عن مفاهيم، والمفاهيم ترتبط مباشرة بالذكاء، سواء في نشوئها أو في تطورها وتوسعها. فذلك يقوم على التسليم بأن ثمة علاقة واضحة تربط بين

تكوين المفاهيم كما تبدو في الرسوم والنمو العقلي (عطية، 1982، ص43 - 45)

4-3- السن:

تختلف رسوم الأطفال الصغار عن رسوم الأطفال الكبار، وتختلف رسوم الأطفال عن رسوم المراهقين كما سبق وأن تبين عند ذكر مراحل تطور الرسم لدى الأطفال.

4-4- البيئة:

تؤكد «العناني» أنه بما أن الرسم لغة تعبيرية فمن الطبيعي أن يعبر الطفل من خلاله عما يحيط به من مظاهر بيئته سواء كانت هذه المظاهر طبيعية أو بشرية. وينبغي الأخذ في الاعتبار هنا أن التعبير بالرسم لديه يرتبط أيضا بالمرحلة العمرية التي يمر بها. بشكل عام يعكس الأطفال في رسوماتهم الواقع الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وعليه فإن رسوم أطفال العالم والشعوب التي تعاني من القهر والفقر تكون مغموسة في واقع المعاناة اليومية (العناني، 2002، ص83).

5- النظريات المفسرة لرسوم الأطفال:

مع تعدد الدراسات والبحوث التي أجراها العديد من العلماء في هذا المجال برزت العديد من النظريات التي فسرت رسوم الأطفال، ومن أهم هذه النظريات ما يلي:

5-1- النظرية التحليلية:

تصور أعماق شخصيات أصحابها أصدق تصوير، كما تعتبر الأشكال المرسومة رموزا بصرية ذات دلالات سيكولوجية معينة لما لها من علاقة وثيقة بالجانب اللاشعوري الخفي من شخصية الفرد، وبما يعانيه من مشكلات وصعوبات (العبد، 2007، ص 463-464).

وعليه فقد استخدمت الرسوم للكشف عن الجانب اللاشعوري للشخصية، إذ تحمل الرسوم دلالات تساعد في التشخيص النفسي لحالات الأفراد كبارا كانوا أم صغارا. كما تعد الرسوم وسيلة علاجية نظرا لوظيفتها التنفيسية وقدرتها على تطهير الفرد من آلامه النفسية. لقد توصل العلماء إلى العديد من الاختبارات التي تعتمد الرسوم كوسيلة تشخيصية (العناني، 2002، ص69-70).

تؤكد جميع الدراسات على أن الفن مهما اختلف طرائقه بما في ذلك الرسم ما هو إلا وسيلة من وسائل التعبير عن النفس بكل ما تحتويه من مشاعر وأفكار وخبرات كما اعتمدت معظم البحوث على عدد من الاختبارات ومقاييس الرسم مثل اختبار

كل من «جودانف» و «ماكوفر» و «روشاخ» إلى غير ذلك من المقاييس التي تبرز اللاشعور في صورة مرئية يمكن تشخيصها (الصايغ، 2001، ص124).

على الرغم مما أسهم به هذا المنحى التحليلي من الكشف عما يمكن أن تزودنا به الرسوم من معلومات كوسيلة اسقاطية تشخيصية علاجية، إلا أن من بين ما يؤخذ عليه هو تركيز كل الاهتمام على تأثير العوامل المزاجية و الانفعالية و اللاشعورية وإغفال العوامل الإدراكية العقلية. و تناول الآثار و الإبداعات الفنية باعتبارها نتاجا للحالة الانفعالية، و تعبيراً عن المواد الغريزية و المحتويات اللاشعورية و الإحباطات و عقد الطفولة مما ينطوي على نظرة سلبية قاصرة لكل من الطفل و الفنان البالغ.

5-2- النظرية التجريبية السلوكية:

ووفقاً لهذه النظرية فإن الرسوم هي ناتج نهائي يتشكل بفعل العوامل البيئية، وينمو نتيجة للتعزيز، ويعبر عن مدى نجاح أو إخفاق الطفل في أداء المهمة التي كلف بها. وذلك بمقارنة أدائه بالأهداف المحددة مسبقاً، والتي تتناول أموراً مثل الإحساس باللون المناسب، المنظور... الخ (العناني، 2002، ص62). وبصفة عامة، فإن التفسيرات السلوكية لا تعتمد على وجهة نظر ميكانيكية بسيطة، بل على التفاعل بين الإدراك والكائن المتعلم، وتتابع المنبهات البيئية التي نشأ بعضها من خلالها استجابات الكائن نفسه (فرج، 1992، ص52).

وإذا نظرنا إلى العملية الفنية فإننا نجد أنها توفر خبرات عقلية حيث أنها تقوم بتنمية القدرة على التفكير، وخبرات نفسية حيث أنها تعطي الفرصة للتعبير الداخلي، وتوفر طرق عديدة في اكتساب العادات المرغوبة، بالإضافة إلى أن الممارسة للعمل الفني تقوم بتنمية القدرات الحركية وصقل الخبرات الجسمية (فراج و آخرون، 2004، ص48-51).

5-3- النظرية المعرفية:

تمثل نظرية «بياجيه» Jean Piaget عالم النفس السويسري وجهة نظر في العلاقة بين القدرات الفنية المتزايدة للطفل والتكيف أثناء الممارسة الفنية. وقد رأى «بياجيه» أنه توجد علاقة قوية في المواقف الجديدة وأن النمو في المواقف يحدث بسبب عمليتين أطلق عليهما التمثيل Assimilation والتوسيع Accommodation والتمثيل الفني لممارس الفن هو عملية إدماج Incorporating مثير فني جديد في نظرة الطفل المعرفية عن العالم المحيط به. أما التوسيع فهو عملية تغيير نظرة

المتعلم المعرفية والسلوكية، عندما تتطلب المعلومات الجديدة هذا التغيير، وأوضح «بياجيه» وجود توتر دائم بين التمثيل وبين الأفكار القديمة والحديثة لدى المتعلم والتوسيع الذي يشير إلى تغيير الأفكار القديمة لمقابلة المواقف الجديدة، ويؤدي هذا التوتر إلى النمو العقلي. ويرى بياجيه أن الطفل ينمو فنيا بنموه العقلي، حيث يصاحب ذلك قدرات ابتكارية متدرجة وأن هذا يتوقف على المراحل التي يمر بها (الهندي، 2009، ص106).

لقد أكد الباحثون أن رسوم الأطفال تحكمها تداعياتهم المعرفية ومدركاتهم العقلية عن الأشياء التي يرسمونها أكثر مما تحكمها صورة هذه الأشياء ذاتها، ولقد أشار «فيولا» Viola إلى أن الخطأ الكبير في تدريس الفن بطريقة كلاسيكية للأطفال نتج أساسا عن عدم المعرفة بأنهم يرسمون ما يعرفونه لا ما يرونه بطريقة لاشعورية (فراج و آخرون، 2004، ص53).

4-5- النظرية الإدراكية أو نظرية الجشطالت:

يتناول «أرنهايم» Arnheim الرسم أو الفن بصفة عامة من منظور إدراكي، ويميز بين خاصيتين في الرسم : التعبير والتقليد. ولا يخرج التقليد عند «أرنهايم» عن كونه عملية نقل للمظهر المرئي ثنائي الأبعاد للأشياء. مثال ذلك نقل الحروف أو الأرقام الذي يقوم به الطفل عند تعلمه الكتابة. وهو ينكر أن يكون ذلك ما يفعله الطفل في رسومه الحرة للأشياء ثلاثية الأبعاد. ويرى «أرنهايم» إنه من الخطأ اعتبار رسوم الأطفال تشويها في التكوين أو نقصا به إذا لم تتفق مع الواقع المرئي، ذلك أن الرسوم تعتمد على هدف معين في ذهن الطفل ويرى أنه يندر أن تبدو الأشياء في صورة ساكنة فنحن نغير باستمرار صور الأشياء، ولهذا فعندما يرسم الطفل المنزل من الداخل والخارج معا، فإن هذا تفسير صحيح لخبرته البصرية للبيت. و بالمثل ليست الخبرة البصرية الواقعية فقط هي غير الساكنة، بل خبرة الطفل التصويرية أيضا، التي يبدو فيها أكبر ميل للحركة لا الثبات (فرج، 1992، ص48-49).

يتبين مما سبق تعدد المداخل التي تناول من خلالها الباحثون رسوم الأطفال. ويبدو أن هذا التعدد يرجع إلى اعتبارات مختلفة من أهمها رسوم الأطفال ذاتها، وما تنطوي عليه من تعقد سواء من حيث العمليات الحس-حركية، و العقلية و النفسية، و الاجتماعية و الفنية الجمالية. إن رسوم الأطفال إذن هي محصلة لكل هذه العوامل المرتبطة و المتفاعلة و نتاج مركب منها جميعا.

6- تحليل رسوم الأطفال و دلالاتها النفسية:

تقول «الهندي» أن هناك دلائل عامة نستدل عليها من رسومات الأطفال وتدل على نوع الشخصية. فالطفل العصبي عندما يرسم فإنه يضغط بالقلم وخطوطه غير منظمة والصور غير واضحة وقد يكسر سن القلم بسبب التوتر وقد لا يكمل الرسم.

- أما الطفل المنطوي عادة تكون رسوماته صغيرة الحجم ويترك مساحات كبيرة في الورقة خالية، وقد يستخدم الظلال الداكنة ونلاحظ أنه بطيء الحركة في الرسم. أما الطفل الانبساطي فعادة تكون رسوماته كبيرة ويستفيد من مساحة الورقة في الرسم ونلاحظ أنه سريع الحركة في الرسم أما الطفل الذكي فتكون رسوماته غنية بالتفاصيل والدقة في الرسم وفي إظهار الحركة (الهندي، 2009، ص75-76).

من خلال تحليل رسوم الأطفال يمكن استخلاص مظاهر و أسس صالحة لتفسير الشخصية لديهم و منها:

- الرسوم التلقائية العاكسة لداخل الطفل تعتبر خاصية للأطفال ذوي المشاكل العاطفية الحادة.

- يشير عدم تناسق الأحجام و الأبعاد في الصور إلى وجود شحنة عاطفية متزايدة لدى الطفل تجاه الشخص الذي يرسمه.

- يكشف غياب اللون في بعض العناصر في اللوحة عن فراغ عاطفي و أحيانا نزعة ضد الغير.

- الرسومات التي تحتل حيزا محدودا من الصفحة تعكس حالة من ضعف الاعتزاز بالذات أو الميل إلى العزلة في شخصية الطفل، على عكس ما تعكسه الرسومات التي تحتل حيزا واسعا على لوحة الرسم يكاد يغطي سطحها كاملا ليعبر عن النزوع إلى السيطرة و حب التملك و إلى النشاط الزائد لدى الطفل (عائش، 2008، ص 43-44).

وتشير «الهندي» أنه عادة ما تدل الرسوم الضخمة لشكل الإنسان على العدوانية والأطفال سيئي التوافق يميلون إلى رسم شكل إنساني مبالغ فيه. عادة ما يقال عن الرسوم الضئيلة لشكل الإنسان أنها تدل على مشاعر النقص وعدم الكفاءة وانخفاض تقدير الذات والقلق والجبن والخجل والانقباض والميول الاكتئابية والاعتمادية، والطفل الانطوائي يرسم الشكل الإنساني صغير جدا وغالبا ما يهمل ملامح الوجه وتفاصيله.

- الرأس: إذا بالغ الطفل في تكبير حجم الرأس فهذا يدل على تضخم الأنا

لديه أما الأطفال المتوافقين نفسيا فإنهم يرسمون الرأس بشكل ملائم للجسم (الهندي، 2008، ص55). إن الرأس وملامح الوجه يعبران بصفة عامة عن الحاجات الاجتماعية، و الوجه يعتبر علامة للتوافق الاجتماعي، ولذلك فإن تأكيده يتضمن محاولة شعورية للاحتفاظ بصلات اجتماعية مقبولة، وعلى منطقة الرأس يسقط الطموح الذهني والدافع إلى الضبط العقلي للحوافز، أو الامتدادات الخيالية للشخصية، أو كل هذه معا (فرج، 1992، ص32)

• الأذرع والأيدي: تكون محملة بالمعاني السيكلوجية مثل الطموح والثقة والكفاءة والعدوان وربما الشعور بالذنب. وأن الأذرع الطويلة القوية تعبر عن الطموح والرغبة في التحكم والسيطرة وأحيانا العدوانية. أما الأذرع الطويلة الضعيفة تعبر عن الحاجة إلى المساندة والعون. والأذرع القصيرة تعبر عن انعدام الكفاءة أو الشعور بنقص الكفاءة. ويدل حذف الأذرع من الشكل بأن الطفل يشعر بعدم الكفاءة وانعدام القوة وأيضا عدم الشعور بالأمان وصعوبة التعامل مع البيئة. ويترجم التعبير عن القلق بالأذرع المرفوعة والقمم المقلوب والأذرع المتجهة إلى الداخل (الهندي، 2009، ص77).

• الفم: الأطفال كثيرون الحديث أو العدوانيين يرسمون فم كبير جدا بأسنان ظاهرة ذات حجم كبير كما لو كانوا على استعداد للاعتداء على الآخرين، و الأطفال المتوافقين نفسيا يميلون غالبا إلى رسم حجم الفم مناسباً بالنسبة للجسم و قلما يرسمون أفواها بأسنان.

• العيون: الأطفال المضطربون الذين يشعرون بأنهم مراقبون أو متحكم فيهم كثيرا ما يرسمون عيوناً كبيرة أما الذين يميلون إلى رسم العين على شكل دوائر صغيرة فهذا يدل على الاعتمادية و الخجل و قلة التفاعل مع الآخرين، و كذلك يكون حذف الطفل لعيون الشكل الإنساني دليلاً على عدم الرغبة في الاختلاط بالآخرين (عايش، 2008، ص 44-45).

• الأنف: الأطفال المتوافقون ذاتياً يرسمون الأنف مناسباً للجسم و التأكيد على فتحتي الأنف و تكبيرهما يدل على العدوان.

• العنق: الطفل الذي يرسم عنقا مبالغاً في طوله يعني أن هناك مصاعب في الوصول إلى تحقيق رغباته المطلوب إشباعها و أما الأطفال الذين يقومون بحذف العنق نهائياً فهم يعبرون عن معاناتهم في المدرسة أو البيت (الهندي، 2009،

ص56).

كما تجدر الإشارة إلى أن للألوان دلالات نفسية مهمة و لها علاقة بالحياة العاطفية و الانفعالية للفرد. و من الشائع تقسيم الألوان إلى فئتين أساسيتين:

أ- الألوان الدافئة:

أهمها الأحمر و الأصفر و البرتقالي و البنفسجي، و هي تشير إلى: الانفتاح العاطفي و العلائقي، سيطرة الحياة الانفعالية، البحث عن الحياة التي تتميز بالحرارة العلائقية. كما تشير إلى الانبساط، التوجه نحو الخارج و العلاقات. و قد تشير إلى نزوة مفرطة، ميل للتوتر و الإثارة و إفلات النزوات من الضبط بشكل يعيق التكيف.

ب- الألوان الباردة:

أهمها الأزرق و الأخضر و الرمادي و الأسود. و هي تشير إلى: سيطرة العقلانية، و البرود العاطفي و الحياد و الانغلاق على الذات و العزلة عن العالم الخارجي، و الميل للتأمل و الاستقلالية، قمع العواطف و كبها، امتثال و رضوخ للقواعد (عباس، 2005، 369-370).

كما يؤكد روير (1989) Royer أن الألوان يمكن أن تكون موضوع للتعبير عن الذات و العواطف وعن الانفعالات. و يوجد ثلاث اتجاهات للألوان. مجموعة الألوان الدافئة وهي الأصفر، الأحمر والبرتقالي وتمثل كل ما يبعث في النفس من عواطف وتعبر عن النشاط، أما مجموعة الألوان الباردة وهي الأزرق، البنفسجي والأخضر فهي تعمل على تهدئة النفس وإراحة الأعصاب فتشيع فيها الهدوء والسكينة. وهناك الألوان التي يطلق عليها بالألوان المحايدة وهي الأسود، الرمادي والبني والتي تتبع حالات الصدمات والصعوبة في التعبير عن الذات (Vinay, 2007 , P64).

الخلاصة:

إن ممارسة نشاط الرسم يعد وسيلة إسقاطية، يعكس من خلالها الطفل مفهومه عن ذاته و عن الآخرين، و مدى علاقته بهم و اتجاهاته نحوهم. كما يعكس ما قد يحمله في داخله من حاجات و مشاعر و انفعالات و مخاوف في صور مرئية، مستعينا على ذلك بمختلف الأساليب و الصيغ البلاغية التشكيلية كالإهمال و التصغير و الحذف و المبالغة. و من ثم فإن الخطوط الناتجة أيا كان نمطها و طبيعتها فهي تزودنا ببعض

المعلومات عن شخصية صاحب الرسم. و بهذا يكون نشاط الرسم وسيلة فعالة لفهم الأطفال و تفسير المعاني و الأبعاد اللاشعورية للأشكال و الرموز المتضمنة في التعبير الفني و ملاحظة العلاقة الوثيقة بينها و بين الشخصية، حتى يتم تشخيص و علاج الاضطرابات النفسية التي يعاني منها الطفل و تحقيق الصحة النفسية له.

المراجع:

1. فراج، عفاف أحمد محمد و حسن، نهى مصطفى محمد عبد العزيز، الفن وذوي الاحتياجات الخاصة، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 2004، ص 48-53، ص 56-57، ص 180.
2. فرج، صفوت، الذكاء ورسوم الأطفال، القاهرة: دار الثقافة، 1992، ص 32، ص 48-49، ص 52.
3. فالنتينا وديع سلامة الصايغ، فاعلية الأنشطة الفنية في تخفيض حدة السلوك العدواني لدى الأطفال الصم في مرحلة الطفولة المتأخرة، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة حلوان، كلية التربية الفنية، مصر، 2001، ص 80، ص 124.
4. القريطي، عبد المطلب أمين، مدخل إلى سيكولوجية رسوم الأطفال، مصر: دار المعارف، ط 1، 1995، ص 28، ص 191-192، ص 242-244.
5. عباس، فيصل، العلاج النفسي و الطريقة الفرويدية، بيروت: دار المنهل اللبناني للطباعة و النشر، بيروت، 2005، ص 369-370.
6. العبد ، سعد السيد سعد، تربية طفل ما قبل المدرسة الواقع وطموحات المستقبل، مصر: المركز القومي للبحوث التربوية والتنمية، ، 2007، ص 463-464.
7. عطية ، نعيم، ذكاء الأطفال من خلال الرسوم، بيروت : دار الطليعة، 1982، ص 43-45.
8. العناني، حنان عبد الحميد، الفن و الدراما و الموسيقى في تعلم الطفل، عمان: دار الفكر للطباعة و النشر، ط 1، 2002، ص 62، ص 69-70، ص 73-75، ص 80، ص 82-83.
9. عايش ، أحمد جميل، أساليب تدريس التربية النية والمهنية والرياضية، عمان: دار المسيرة، 2008، ص 36، ص 38، ص 43-44، ص 44-54.
10. الهندي ، منال عبد الفتاح، التربية الفنية لطفل الروضة، عمان: دار المسيرة،

2008، ص 35-36، ص 55.

11. الهندي ، منال عبد الفتاح، مدخل إلى سيكولوجية رسوم الأطفال، عمان: دار المسيرة، 2009، ص 15، ص 20، ص 56، ص 65، ص 75-77، ص 92، ص 106.

12. يحي ، خولة أحمد و عبيد ، ماجدة السيد، أنشطة للأطفال العاديين ولذوي الاحتياجات الخاصة، عمان: دار المسيرة، 2007، ص 284.

13. Vinay, Aubeline, Le dessin dans l'examen psychologique de l'enfant et de l'adolescent, Paris : Dunod, 2007, p 64.